تجديد الخطاب الدينى
"مفهوم الدعوة نموذجاً"

إبراهيم البيومى*

مفهوم "الدعوة" هو أحد المفاهيم الإسلامية الشاملة. ويهدف هذا المقال إلى بيان كيفية تجديد الخطاب الدينى انطلاقًا من هذا المفهوم الأساسى، كما يهدف إلى بيان الفروق بين مقاصد الدعوة العامة ومقاصد الدعوة الخاصة. ويقترح وسائل عملية للتجديد المنشود.

مقدمة

تصاعدت الدعوةُ لتجديد الخطاب الدينى، المقصود هو: الخطاب الإسلامى، وذلك فى السنواتِ التى تلت ثورة يناير سنة٢٠١١. ولكن التجديد والدعوة إليه أمران قديمان فى حياة المجتمع المصرى بخاصة، وفى حياة مجتمعات الأمة الإسلامية بعامة. وهما أمران يزدهران حينًا ويخفتان حينًا آخر. وفى سجل التجديد والدعوة إليه لدينا أعلام لا تزال أفكارهم واجتهاداتهم التجديدية حاضرة وفاعلة بدرجات متفاوتة فى الواقع المعاصر، ومن هؤلاء: الإمام محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، وأستاذهما جمال الدين الأفغانى، وتلاميذهم من بعدهم وهم كثيرون.

والدعوةُ لتجديد "الخطاب الدينى الإسلامى"- تفترض أول ما تفترضُ- أن هذا الخطابَ هو مبتدأ الحركة والفعل، ومنبعُ السلوك والتطبيق؛ فإن صحَّ وكان صوابًا؛ صحت الحركة، واستقام السلوك، ونجح التطبيق. وقد لا يلقى هذا

* مستشار، قسم بحوث وقياسات الرأى العام، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الرابع والخمسون، العدد الثالث، سبتمبر ٢٠١٧.

الافتراض قبولاً لدى أصحاب الاتجاهات الإيديولوجية المادية أو الجدلية، كما قد لا يلقى قبولاً لدى أصحاب الاتجاهات العلمية أو التجريبية. وهذا موضوع يحتاج إلى كثير من النقاش الفلسفى المتعمق لا يتسع له المجال هنا.

وقد اختير "مفهوم الدعوة" لممارسة مهمة التجديد فيه؛ باعتباره مفهومًا شاملاً وكاشفًا عن مكونات الخطاب الدينى الإسلامى فى مجمله. وباعتباره أيضًا مثالاً شارحًا، أو نموذجًا لكيفية التجديد على المستوى الأصولى أولاً، ثم على المستوى التطبيقى الواقعى ثانيًا.

ومفهومُ الدعوة من حيث الأصل هو مفهوم قرآنى قال تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن". وقال سبحانه " ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين". والدعوةِ إلى الله تعالى نوعان: خاصة وعامة. ولكل نوع مقاصد وغايات. وللدعوة فى عمومها؛ خاصةً كانتْ أو عامةً؛ مقصدٌ أعلى ونهائى وواحدٌ وثابتٌ هو: أن ينالَ الداعى ثوابَ اللهِ ورضاه بأداءِ واجبِ البلاغِ، وذلك بأن يبرئَ ذمته بإقامة الحجة على المدعوين بالحكمةِ والموعظة الحسنة، ودونَ إكراه.

وتحتَ هذا المقصد الموحد والثابت والأسمى والنهائى والمجردِ للدعوةِ إلى الله؛ تتدرجُ مقاصدُها العمليةُ، وتتعدد وسائلُها، وتختلفُ أولوياتها وقضاياها بحسب ما إذا كانت خاصةً أو عامةً؛ وهذه المقاصد متغيرة من حيث عددُها وأولوياتُها. ونقصدُ **بالدعوة الخاصة** هنا: الخطابَ الذى يتوجه به الداعى إلى جمعِ المسلمين وأفرادِهم ويأملُ فى تفعيلِه عندَهم؛ عبر الإسهام فى بناء وعيهم بذواتهم الفردية والجماعية الحرة . أما **الدعوةُ العامةُ** فنقصدُ بها: الخطابَ الذى يتوجهُ به الداعى إلى جمعٍ من غيرِ المسلمين وأفرادِهم، ويأملُ فى تفعيله عندَهم؛ عبر بيان أصول الرؤية الإسلامية للعالم والخالق سبحانه وتعالى والكون والحياة.

ومفهومُ الخطابِ بمعناه الدقيق يشملُ النصَّ والممارسةَ معًا، ولا يقتصرُ على أى منهما وحدَه. وعليه؛ ففى رأينا أنَّ المقصدَ العملى العامَّ **للدعوة الخاصة** هو: التوعية بأصول العقيدة والشريعة وقيمها العليا، وترتيب أولويات المؤمنين بها، وحثهم على ضبط سلوكهم، وتدبير شئونهم على هديها للإسهام فى أداء مسئولية إعمار الأرض. أما المقصدُ العملى العام **للدعوةِ العامةِ** فهو: بيانُ كلياتِ العقيدة والشريعة، والبرهنةُ عليها، وبذل ما فى الوسع للإقناع بها، واستمالةُ القلوبِ إليها، وتفعيلُها فى عقولِهم وأنفسهم؛ فإذا ما نجحَ الداعى فى هذه الدعوةِ العامة؛ أضحى المدعو مهيئًا للاستماعِ إلى الدعوةِ الخاصة. أما إذا فشل فلا يلومنَّ إلا نفسه، وما على من دعاهم من وزر.

والدعوةُ سواء كانت خاصة أو عامة؛ لها خمسةُ مكونات: الداعى، والمدعو، وموضوع الدعوة، ووسيلة الدعوة، ورد فعل المدعو. ولكل مكونٍ منها مواصفاتٌ ومعاييرُ أداءٍ وعلاماتُ نجاحٍ خاصة. وتفصيل القول فى هذه المكونات له مقام آخر.

وبناءً على التعريف السابق لـ "الدعوة الخاصة"، و"الدعوة العامة"؛ فإنَّ أولَ ما تقتضيه هو أن يجتهدَ صنَّاعُ القرارِ الدعوى فى صوغِ مقاصدِ الدعوةِ بما يجيبُ على أسئلةِ كلِ واقعٍ، وبما يستوعبُ سياقاتِه، ويلبى حاجاتِ كلِ عصرٍ وزمانٍ ويساعدُ فى التغلبِ على تحدياتِه.

وقبل الانتقالِ إلى تفاصيلِ الموضوعِ، من المهم التأكيدُ على بعض المسائل المفهوميةِ الأساسيةِ، وهى:

١- التفرقة بين "الدعوةِ إلى الله"، و"التعليمِ الدينى". فالدعوةُ هى كما سبق الإشارة؛ أما التعليم فمهمته تتمثل فى عمليتى: التنشئة العملية على تعاليم ومبادئ وشرائع الإسلام وشعائره من جهةٍ، والتدريسِ الذى يشمل من جهة أخرى: أبوابَ العباداتِ، والمعاملاتِ، والجناياتِ، والعاداتِ والأعرافِ

بمعايير المرجعية الإسلامية، وبما يجيب على أسئلة الواقع وتحدياته الراهنة. والاهتمام هنا مقتصر على الدعوة ومقاصدها العامة والخاصة فحسب.

٢- أن كلَّ الحقولِ الدلالية لمفهوم "الدعوة" تدخل فى نطاقِ مفهوم الصدق. والصدقُ المطلقُ على الدوامِ هو ما يميزُ الدعوةَ عن "الدعاية". وبانتفاء الصدقِ ينتفى الشرطُ اللازم والضرورى للدعوة؛ خاصةً كانت أو عامةً. أما الدعايةُ فهى تجمعُ على الدوام بين كثير من الكذبِ وقليلٍ من الصدق. وقد كان الصدق أساس دعوة كل الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى:﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر:٣٣). ولهذا كان من الصدق وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأنه "الصادقُ الأمينُ".

٣ - يفرض سمو الدعوةِ أن يكونَ الداعى على أعلى درجةٍ ممكنة من الصدقِ، وأن يكون متحلياً بمكارم الأخلاقِ، إلى جانب حيازة أفضل درجاتِ التأهيل بأمور العقيدة التى يدعو إليها. وأن يكونَ ماهراً فى فنون التواصلِ الفعال مع فئات متنوعة من المدعوينَ. وهذا ما نستقرِؤه من كثرة التوجيهات القرآنيةِ بشأن الداعى إلى الله. وكذلك من كثرةِ التحذير من الكذب، باعتبار أن الكذبَ أكبرُ عوائق الدعوة، إلى جانب عوائق: الظلم، والكبر، والجهل، والانحراف. وقد وردَ التحذيرُ من الكذب فى سياق ٢٤١ آية، موزعة فى أغلب سور القرآن من سورة البقرة إلى سورةِ الماعون. أما القائمون بالدعايةِ فأخلاقهم على النقيضِ مما سبقَ فى أغلبِ الأحوال.

ولا يخفى أن هناك تداخلاً واشتراكًا بين بعض ما هو خاصٌ وبعض ما هو عامٌ من مقاصد الدعوة. ولأغراض الشرحِ والبيان، سيتم تناول كلاً من المقاصدِ الخاصة والمقاصد العامة على حدة، مع الأخذ فى الاعتبار ما هنالك من

بعض التداخل والاشتراك. وعلى هذه الخلفيةِ سوف يتم تناول مقاصدَ الدعوةِ العامة والخاصة.

وما سيردُ هنا هو اجتهادٌ فى بيان مقاصد الدعوة الخاصة والدعوة العامة. وبما أنه "اجتهادٌ"؛ فهو بحكمِ تعريف الاجتهادِ دعوةٌ مفتوحةٌ لممارسةِ النقدِ.

أولاً: مفهومُ الدعوةِ الخاصةِ ومقاصدها

تستهدفُ الدعوةُ الخاصة - إلى الله - تفعيلَ الخطاب الدعوى فى المسلمين أنفسهم؛ أفراداً، أو فئات، أو أقوامًا ومجتمعات. ودستورها ودستور الدعوة العامة أيضًا هو: "الصدق" المطلق[١]، و"الحكمةُ والموعظةُ الحسنةُ"، والجدالُ بالتى هى أحسن. وليس للداعية من وراء ذلك سلطانٌ على المدعو؛ صغرُ هذا السلطان أم كبرَ. ومقاصدُ هذه الدعوة الخاصة أهمُّها الآتى:

١- تصفيةُ التوحيدِ من أدرانِ الشركِ

توحيد الله سبحانه وتعالى هو لب دعوة كل الأنبياء والمرسلين، من أولهم إلى خاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وهذا المقصدُ يأتى دائماً مقدمة المقاصد الخاصة للدعوة. وتوحيد الله سبحانه وتعالى هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة اعتقادًا وقولاً وعملاً ، وهذا هو مقتضى شهادة أن "لا إله إلا الله". والتوحيد بهذا المعنى هو النواةُ الصلبة فى البنية الاعتقادية. وهو أساس الإحسان والتنزيه والعبادة الصادقة.

وأقوَم المسالك لنشر التوحيد والتعريف به هو العودة إلى نصوص القرآن والسنة، دون زيادة أو نقصان. وهذا ما فعله الدعاة المصلحون على مر الزمن دون تعنت أو تنقيب عما فى صدر الناس أو اتهامهم بلا دليل أو برهان. وهذا هو الموقف المتوازن الذى يجمع بين صفاء التوحيد ونقائه، والذى يركز عليه علماء أصول الدين والمتكلمون من السلف، إلى جانب رقةِ القلوب وتربية

النفوس وترويضها عمليًا وفق مقتضيات التوحيد على النحو الذى برع فيه علماء التصوف الذين ابتعدوا عن حدى الإفراطِ والتفريطِ.

ومن أهم ما يتجلى فى مبدأ التوحيد هو أنه يشكل ـ عمليًا ـ مسارًا تاريخيًا ممتدًا قوامه التأليفُ والدمجُ بين بنى البشر، فى مواجهة مسار آخر هو مسارُ "التفسيخ" الذى يفرقُ ويمزقُ الشعوبَ والأممَ والإنسانيةَ. وهذا الاتجاه التفسيخى هو الذى أنتج الغرور والانغلاق والاستكبار فى النموذجِ العلمى الغربى، وهو نموذجٌ مضاد على طول الخط للنموذج التوحيدى الذى ورثته البشرية عن أنبياء الله ورسله، وبلغ ذروته فى النموذج الإسلامى(٢). ولهذا فإن التوحيد ليس حاجة إسلامية فحسب، وإنما هو حاجة إنسانية عامة لمن آمن ولمن لم يؤمن.

٢- التوعية بأصالة الحريةِ والكرامةِ الإنسانيةِ

تفتح شهادةُ أن "لا إله إلا الله" أبوابَ الحريةِ لمن يؤمن بها. ولكن هذا المؤمنَ قد يظل غير واعٍ بنعمة الحريةِ التى تفيضُ بها عليه عقيدةُ "لا إله إلا الله"، ومن ثم تكونُ كرامته الإنسانية عرضةً للانتهاك. ولهذا وجب على الدعاة بعد تطهير الاعتقاد عن الشرك والإلحاد أن يكون الدرس الثانى هو أن "الحرية" أول وأعلى مقتضيات "لا إله إلا الله"، وهى فى الوقت نفسه الطريق إلى "لا إله إلا الله". "هى القيثارةُ وهى النغمُ" بتعبير مولانا جلال الدين الرومى. وعلى الدعاةِ أن يُعرفوا المسلمين بأن مقتضى الحريةِ فى ظل "لا إله إلا الله": أن ينعمَ الإنسانُ بكرامته التى منحها الله له فلا يهانُ ولا يستذلُ ولا يستعبدُ لغير الله، وأن يتحررَ من أسرِ الذلِ والاستبدادِ، ومن قيود الجهل والتقليدِ، ومن قيودِ الفقر والعوز والمرض، ومن ذلِ الذنوب والآثام والشهوات. إن التحررَ من كل هذا دفعة واحدة هو ما يعبر عن تمام "الحرية" تحت ظلال "لا إله إلا الله". وعلى الدعاةِ أن يوجِّهوا المسلمين إلى أن يتحسس كلٌ منهم حرياته؛ هل هى على ما يرام بأبعادها ومقتضياتها تلك؛ أم هى منقوصةٌ؟. وعليهم أن يعلموهم أن النقصَ

فى حرياتهم يساويه نقصٌ فى كرامتهم، ونقص آخر أفدح فى إيمانهم بحقيقة شهادة أن "لا إله إلا الله"، وأنه بالوعى والمطالبةِ والعمل والمجاهدة تتحققُ الحريةُ بكمالها، ومن ثم لا تكون العبوديةُ إلا لله وحده لا شريكَ له.

الحريةُ هى شرطُ الثقافة والتمدن، والعبوديةُ شرط الاستبداد والتخلف. وقد كان فَقْدُ الحرية هو أحد أهم أسباب انحطاط المجتمعات الإسلامية. وكان فقدها علةً أساسية ونتيجة حتمية فى آن واحد لسيطرة قلة محتكرة للسلطة والثروة. وقد عبرَ الكواكبى عن ذلك فى كتابه "أم القرى" على لسان "المولى الرومى" فقال: " وعندى أن البليةَ فقدنا الحرية، وما أدرانا ما الحرية!؛ هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظُه حتى استوحشناه، وقد عرف الحرية من عرفها : بأن يكونَ الإنسانُ مختاراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم. ومن فروعِ الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدمُ الرهبة فى المطالبة وبذل النصيحة ... فالحريةُ هى روحُ الدين، ...وأعزُّ شيء على الإنسان بعد حياته، وإن بفقدانها تفقدُ الآمال، وتبطلُ الأعمال، وتموتُ النفوس، وتتعطلُ الشرائع، وتختلُّ القوانين"[٣].

وما سبقَ يعنى: أن كلَّ سياسةٍ أو قرارٍ أو مشروعٍ أو ممارسةٍ تنتهك شيئًا من كرامةِ الآدمى هى انتهاك لإسلامية الدولة، وإهدارٌ لشرعيةِ السلطة التى تقوم على شئونها بنفس القدر الذى تنتهك به الكرامةَ الآدمية.

٣- الحض على العدل ومقاومة الظلم

"العدلُ" اسم من أسماء الله الحسنى. ومعناه الذى حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم هو "إعطاءُ كلِّ ذى حقٍ حقَه". ونقيضُ العدل "الظلم"، والله سبحانه وتعالى قد حرم الظلمَ على نفسه، وجعله بين الناس محرمًا، وأمرهم بألا يتظالموا. ومن مقاصدِ الدعوة الخاصة: بيان مركزية قيمة العدل فى أصولِ الإيمان بالله واليوم الآخر، والبعث، والحساب، والثواب والعقاب. وبيانُ مركزية

العدل فى تحقيقِ الأمن والاستقرارِ فى الحياة الاجتماعية؛ وأن الظلمَ كانَ ولا يزالُ وسيظلُّ "مؤذنًا بخرابِ العمران" على نحو ما خلص إليه الفقيه والقاضى المالكى الكبير عبد الرحمن بن خلدون.

مجتمعاتُ العالمِ الإسلامى- فى أغلبها- تعانى من اختلال ميزان العدل: فى القضاء بين الناس؛ حيث ينخرُ الفسادُ فى جسدِ العدالة القضائية. وفى الحكمِ وتداول السلطة؛ حيثُ تتسلطُ فئةٌ أو حزبٌ، أو قبيلةٌ، أو فردٌ من دون الناس بمقاليد الحكم، ولو ضحى بكل الشعب من أجلِ بقائِه. واختلالُ العدالةِ حاصلٌ فى الأرزاقِ وفرصِ العملِ وتوزيعِ عوائد الإنتاج؛ حيث يتفشى الاستغلال إلى حدِّ السخرةِ فى العمل، والتمييزِ، والبطالة، والاستئثار بالثروة. والظلمُ حاصلٌ فى العلاقة مع النظامِ العالمى والقوى المسيطرةِ؛ حيث ترزحُ شعوبُ الأمةِ الإسلامية ودولها تحت ظلمٍ فادح، وتبعيةٍ مهينة، وحقوقٍ ضائعة: فى فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وبورما، والشيشان، والسودان...إلخ. وغيابُ العدلِ يعنى حضورَ الظلمِ. ولا يسعُ المسلمُ إلا أن يقاوم هذا الظلم بكل وسيلةٍ مشروعة حتى يعودَ الحق لأصحابه. ولا تُسمع دعوى الإرهاب فى قضايا مقاومة الظلم والاحتلال والتبعية للقوى الأجنبية.

الأصلُ العقيدى الذى يجب أن يغرسه الداعيةُ فى وعى المسلم هو أن: الإيمانَ بالله وحده، وأنه الخالق وحده؛ يعنى النظر إلى عموم البشر بعين تراهم "مؤمنين وكافرين"، وتراهم بعين أخرى "جميعاً خلقاً واحداً" لإله واحد؛ وعليه فإنه سيحكمُ الحكمَ الصائب الأقربَ للعدل والأبعدَ عن الظلم. وهذا ما أدركَهُ كبارُ شيوخ الطريق مثل السهروردى الذى قال" عنصر الأجساد منا واحد... وكذا الأرواحُ روحٌ عمنا. ما أرى نفسى إلا أنتمو... واعتقادى إنما أنتمْ أنا".

وأعظم مزايا العدل بمرجعيته الإسلامية أنه "عدل مطلق"؛ حتى مع العدو، ومن باب أولى مع المختلف وليس عدواً قال تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤). وقوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٥).

٤ - إعلاءُ الوحدة وقبول التنوع والتنافس فى الخير العام ورفضُ الصراعِ

التوحيدُ الخالصُ لله يعنى–ضمن ما يعنى – قبولَ التنوعِ والتعدد فى كل ما هو دونه سبحانه وتعالى. وعلى هذا الأصلِ الثابت ينبنى وعى المسلم بناءً سليمًا. فلا وحدة؛ فى أى من مستوياتها الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الإنسانية؛ بلا تنوعٍ يثريها ويقويها. وعندما يكونُ التنوعُ والتعددُ بلا منظومةٍ جامعة فهو قرينُ الفوضى. والله تعالى يقولُ:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٦). ويقول سبحانه وتعالى:﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٧). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " يد الله مع الجماعة". والله تعالى يقول أيضًا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٨). فالإسلامُ كما طالبَ بالوحدة واعتبرها من مقاصدِه العليا؛ كذلك حافظَ على حالات التنوع والتعددِ الموجودةِ فى مختلف المجالات. قال الله تعالى:﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٩). وإرادتُه سبحانه الكونية، غيرُ أمره الشرعى التكليفى بحسبِ اجتهاد الإمام عبد السلام ياسين؛ فأمرُه الشرعى أن يكونَ الناسُ أمةً واحدة موحدة على الإسلام الذى جاء به الرسل عليهم السلام، أما قدرُه سبحانه الكونى أن لا يكونَ الناس أمةً واحدةً؛ وأن يختلفوا ويتقطعوا بما كسبت أيديهم وبما حادوا عن الفطرةِ وعصوا ربَّهم. قال تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾(١٠).

من مقاصدِ الدعوةِ الخاصةِ بالمعنى (الذى ورد)؛ أن يسهمَ الدعاةُ والمصلحون فى إعادةِ تكوين الوعى الإسلامى على أساس قبولِ التنوع والتعدد فى إطار الوحدة. لكن قبولَ التنوعِ والتعدد لا يعنى أبداً قبول التجزئة مهما كانت قوة الأمر الواقع. فالمسلم صحيح الإدراك يعى أنه ينتمى لأمةٍ واحدة لها شعوب وثقافات متنوعة، وعليه ألا يصدقَ أبداً أنه من أبناءِ سايكس بيكو. وأن العطبَ الأفدحَ من تجزئة الأرض هو تجزئةُ الفكرِ وزحزحة الإيمان، والهيمنةُ الثقافية التى صنعت وتُصنع من بنى جلدتنا نظائرَ للمستعمر على شكل فكرِه وشعورِه وبزته ونمط حياته وشغل عمره؛ يخلفونه بعد انسحابِه"(١١).

يفرض الإسلامُ وحدةَ الأمةِ مع المحافظةِ على تنوعاتها الفرعية، وتعتبرُ هذه الوحدة عاملاً أساسيًا فى بناء المجتمع لا يمكن التساهلُ فيه؛ لأن الوحدةَ قرينَ الإيمانِ، كما أن الخلافَ قرين الكفرِ. ويتعين أن يكونَ ذلك من المهماتِ الأساسية للدعوةِ الخاصة وفى صميمِ وعى المسلمِ المعاصر.

وعليه يجبُ أن يحثَّ الدعاةُ فى مجال الدعوة الخاصةِ على ضرورةِ تجريمِ الإقصاء السياسى والاستبعاد الاجتماعى، ومن ثم يجبُ التشديدُ على عدمِ الاعترافِ لفردِ أو حزبٍ أو جماعةٍ أو فئةٍ أو طائفةٍ كائنةً ما كانت بأنها

تمتلكُ وحدها الحقيقةَ الكاملةَ، أو إنها معصومةٌ من الخطأ، وإلا لكان ذلك إنكارًا للأمر القرآنى بالشورى كطريق للمساعدة على التوصل إلى الصواب النافعِ والمحقق للمصلحةِ.

٥- الحث على طلب العلم ومحاربة الجهل

يفرضُ انتشارُ الجهلِ والأميةِ وعدمِ الاكتراث بالعلم والتعليم فى واقع المجتمعات الإسلامية أن يكونَ الحثُّ على طلبِ العلمِ ومحاربةِ الجهلِ مقصدًا مركزيًا من مقاصدِ الدعوة الخاصة. ولو أنَّ مجتمعاتِنا الإسلاميةَ تهيأت لها فى العصرِ الحديثِ ظروفُ الاستجابةِ لنداءاتِ العلمِ والتعلمِ والتعليمِ الواردة فى القرآن الكريم وتعاليم الرسول الكريمِ لما بقيت نسبةُ الأميةِ مرتفعةً فى أغلبيتها إلى هذا الحد الذى يصلُ إلى أكثرَ من نصف عدد السكان فى بعضِ البلدان. ناهيك عن انتشار أنماطِ التفكير الخرافي، والتقليدِ دونَ وعى.

الإسلامُ جعلَ العلمَ فريضةً، وأوجبَ طلبَهُ على كل مسلمٍ ومسلمةٍ؛ نعم، ولكن واقعَ المسلمين لا يُشيرُ إلى الالتزام بأداء هذه الفريضة على نحو كافٍ لتحقيقِ مقاصد هذه الفريضة. ومن أوجب واجباتِ الدعاةِ أن يكون من مقاصد الدعوةِ الخاصة حثُّ جمهورِ المسلمين على طلبِ العلم بمعناه الواسع، والالتزامُ بطريقة التفكير العلمى التى تقوم على الملاحظةِ، والاستدلالِ، والبرهنةِ، والتفسيرِ، والنقدِ، والمقارنةِ، واختبارِ صدق المعرفة وصلاحيتها، ومعرفةِ النفع والضرر، وتطويرِ مقاييس منضبطة لذلك؛ ونبذِ نمط التفكير الخرافى من عقولهم ومن حياتهم جملةً وتفصيلاً.

ولا مفر هنا من أن يَقْدُمَ الدعاةُ والمصلحون على تفنيدِ التقسيم السائد الخاطىء للعلومِ إلى:"علوم شرعية"،و"علوم أخرى"(١٢)، منها العلومُ الاجتماعية، والعلومُ الإنسانية، والعلومُ الطبيعية. فهذا التقسيمُ رغم أنه سائد فى مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة والمعاصرة؛ فإنه خاطىء تمامًا. ولا يعبر عن الرؤيةِ

الإسلامية الأصيلةِ التى نتصور أنها تقسمُ جملة العلوم إلى قسمين اثنين: أولهما قسمُ العلوم المشروعة. وثانيهما قسم العلوم غير المشروعة. القسمُ الأولُ يضم كلَّ أنواعِ العلوم والمعارف التى حضت تعاليمُ الإسلامِ فى الكتاب والسنة على تحصيلها، والأخذِ بها، والإضافةِ إليها وتطويرها وهى تفتحُ المجالَ أمامَ إعمالِ العقل، والنظر فى الأدلة والبراهين والبحث عنها فى مصادرها النقلية، والعقلية، والواقعية. وهى تشملُ: علومَ الشريعةِ: من تفسيرٍ، وفقهٍ، وسيرةٍ، وحديثٍ، وأصول فقه، وكلامٍ، وما يلحقُ بذلك من علومِ اللغة والمنطق. وتشملُ فى اللحظةِ نفسها: العلومَ الاجتماعية: من اجتماعٍ، وعلمِ نفس، وأنثروبولوجيا، واقتصادٍ، وتاريخ، ومحاسبة، وإدارة ...إلخ. وتشملُ كذلك العلومَ الإنسانيةَ: من فلسفةٍ، وآدابٍ، وفنونٍ، وقانونٍ، ورياضياتٍ...إلخ. والعلوم الطبيعة: من كيمياءَ، وأحياءَ، وفلكٍ، وفيزياءَ، وهندسةٍ، وطبٍ، وصيدلةٍ،...إلخ.

أما القسمُ الثانى فيضمُ كلَّ أنواعِ العلومِ والمعارفِ "غيرَ المشروعة" التى لا تأبَهُ بالعقلِ، وتزدرى المنطقَ والبرهانَ، وتهيمُ فى الخرافاتِ والخزعبلاتِ، وتغلقُ أبوابَ التفكير والنقدِ، وتدعى العلمَ والمعرفةَ بأدواتٍ لا يمكنُ إخضاعُها للتجريبِ، ولا يمكن التأكدُ من صلاحيتِها كوسائلَ للمعرفةِ النافعة، وهذه العلوم تجاوزًا تشمل: السحر، والتنجيم، والشعوذة، ...إلخ.

هذا هو مضمونُ الخطابِ الدعوى الجديد الذى يتعين أن يكون فى صلبِ خطاب الدعوة الخاصة فى الواقع الراهن لمجتمعات الأمة الإسلامية كافة.

٦- الحضُّ على العمل وزيادة الكسب

يعرفُ كلُّ واحدٍ من المسلمين أن العملَ عبادة بمعناها الواسع. ولكن مفهومَ "العمل" الذى يرتفع إلى مستوى العبادة الخالصة لله تعالى ليس واضحًا بما فيه الكفاية؛ ومشوشًا بمفاهيمَ باليةٍ وخرافيةٍ تتعلق بالكسب والرزق والملكية؛ تبدأ

بادعاء الزهدِ والعزوف عن الدنيا، ولا تنتهى بممارسةِ "الفهلوة" والتحايل وانتهاجِ الطرقِ المحرمة للحصول على المال. والذى نلاحظه هو أن الخطابَ الدعوى المعاصرَ لا يهتمُ كثيراً بغرس المفاهيم الإيجابية الصحيحةِ عن العمل وأهميته فى القيامِ بواجب إعمار الأرضِ؛ وربما أسهمَ هذا الخطابُ فى زيادة تشويه وعى جمهورِ المسلمينَ وتزييفه بشأنِ العملِ بدعوى الزهد والرضا بالكفافِ والإعراض عن الدنيا، والرضا بالمقسوم، وما شابه ذلك مما يتناقضُ مع أصولِ التوجيه القرآنى النبوى بشأن علو قيمةِ العمل باعتباره فريضةً، والحثِّ على الكسب لدرجة الثراءِ والغنى باعتباره فضيلةً تمكن صاحبه من تحقيق سعادة الدارين؛ إذا كان كسبُه من حلالٍ، وكان مؤديًا ما عليه من حقوقٍ.

وعليه فإن من مقاصد الدعوةِ الخاصة الإسهامُ فى الحضِّ على: إعلاءِ قيمةِ العمل والسعى للكسب الحلال، واحترامِ العمل يدويًا كان أو ذهنيًا؛ باعتباره المصدرَ الوحيدِ للكسبِ والله تعالى يقول:﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١٣). وأن "الغنى الشاكر، أفضل عند الله من الفقير الصابر". وأن شرطَ العملِ لكى يكون عبادةً هو أن يكون مشروعًا وذا أولوية حتى يسهم فى تحقيق مصالح المجتمع، وأن يكون متقنًا غاية الإتقان، وأن يُؤْجرَ العاملُ أجرًا عادلاً وفق تعاقد يحفظ حقوقه وحقوق صاحب العمل على قاعدة العدالة، وتحريم العمل بالسخرة لدى الغير. والتأكيدُ على أداء الواجباتِ الشرعية فى كسب العمل من زكاةٍ وضرائبَ وصدقاتٍ وأعمالٍ خيرية متنوعة للمصلحة العامة. وأن يسهمَ كلُّ واحد، إلى جانب السلطات العامة، فى مقاومةِ الطرق غير الشرعية للكسب أو للحصول على المال مثل: السرقةِ، والاختلاسِ، والرشاوى، والغصبِ، والاستيلاءِ على المال العام أو إهداره، أو إساءة استخدامه(١٤).

وآياتُ القرآنِ تحكى نماذجَ كثيرة عن قيمةِ العمل وقِيَمِهِ المهاريةِ والأخلاقية. ومنها نستنبط أن كلَّ حرفةٍ أو صنعة تكون سببًا فى انتظام الضروريات والحاجيات والتحسينيات لابد أن تكون محلَ احترام وتقدير وتطوير وتحسين، وما يكون من الحرفِ والصنائع سببَ فسادٍ للعقل أو المالِ أو البدن أو الدين أو النسل؛ فلابدَّ أن يدان ويزال. والعملُ إما أن يكونَ هادفًا للربحِ، وإما أن يكون خيريًا لمصلحة الغير. ويسهم العملُ الخيرى فى تحقيق مقصد "السلم الأهلى" بصور متعددةٍ منها: المسارعةُ إلى إزالة نقاط التوتر، ودفعُ الحراك الاجتماعى نحو درجات أعلى وأوسع من العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية.

ومن مقاصدِ خطاب الدعوة الخاصةِ أن يستنهضَ الهمم من أجل الارتقاء بالعمل، وأن يوظفَ هذا الخطابُ نتائجَ البحوثِ الاجتماعية والفلسفية ومختلف الفنون فى خدمة النشاط الاقتصادى حتى يصبحَ العمل دافعًا لمزيد من الكسب، وأن يكونَ سببًا من أسباب تقوية الاقتصاد الوطنى واستقلالِ العملة، ومن ثم استقلال السوق ونظامِ الأسعار، ورفض الاحتكار، ورفض السخرة رفضًا باتًا، ومن ثم يصبحُ مساعدًا على ترسيخِ الحريات العامةِ والخاصةِ فى المجتمعِ والدولةِ بشكلٍ عامٍ.

٧- الحثُّ على الإيجابيةِ والمشاركة وتركِ العزلةِ

من أسوأ الظواهر فى مجتمعات البلدان الإسلامية: السلبيةُ والانسحابُ من المجالِ العام، واللامبالاةُ(١٥). وتتناقضُ هذه الظواهرُ تناقضًا مباشرًا مع قيم الإسلام ومبادئه التى تنظم العلاقةَ بين المسلمين وتحضُّهم على المشاركة والإيجابية. يقول الله تعالى: ﴿والْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١٦). ويقول الرسول

صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(١٧).

والمجالُ العام المقصود هنا هو: ميدانُ ممارسةِ "الحرية". والحريةُ هى من صميم المقاصد العامة للشريعة. ولا يُقبِلُ الفرد على مبادرة طوعية يلزمُ بها نفسه لمصلحة الغير وتستهدف النفع العام إلا عندما يبلغ مستوى الولايةِ على نفسِه؛ أى أن يكونَ حرًا مختارًا غيرَ مكرهٍ. وعلامةُ ذلك أنْ يكونَ مشاركًا بإيجابيةٍ فى قضايا المجتمعِ وهمومِه. أما عندما يفقدُ المسلم حريته، أو يشعرَ أنها مهدرةٌ أو مهددةٌ تهديدًا لا قبل له بدفعِه، فإنَّ أولَ ما يفعلُه هو أن ينسحبَ من المجال العام، وينكفئ على ذاتِه، ولا يبادرُ بمشاركة عامةٍ، ناهيك عن أن يبادرَ بمشاركة خيريةٍ ليس لها جزاء غير مادى. أو قد يلتحق ـ أحيانًا ـ بجماعة السلطانِ، ويصبحُ أداةً من أدواتِه فى ممارسةِ البطشِ والتنكيل بالأبرياء أو بالمعارضينِ سواء بسواءٍ. وفى الحالين يفقدُ المجالُ العام جزءًا من حيزه؛ لأن هذا المجالَ لا ينشأُ ولا يتكونُ إلا بمجموعِ ذواتٍ إنسانيةٍ حرةٍ، تتشاركُ همومَ الجماعةِ وتسعى لتحقيق مصالحها، وتتكاتفُ منْ أجل دفاع عنها عندما تتعرضُ للتهديدِ. وفى المقابلِ تكسبُ السلطةُ الطاغيةُ ذلكَ الجزءَ المفقودَ من المجال العام؛ لأنه تنازلَ عن حريته، ومن تنازل عن حريته لا "خير" فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه؛ فالخيرُ والحريةُ وجهان لعملةٍ واحدةٍ.

وحبُّ الحصيدِ فى مقاصد الدعوة الخاصة هو أنَّ بناءَ القوةِ وإدانةَ الضعف بكل أبعاده مقصد عام وأساسى للدعوة الخاصة. فالقوة المعنوية بالإيمان وتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، والمادية بالعمل والإتقان والكسب، مطلوبة لكمال تحقيقِ الذاتِ الفرديةِ والجماعيةِ، ومطلوبةٌ لحمايةِ استقلالِ الوطن وعزةِ الشعب وتحريره من أيه هيمنة أجنبية تسلبه إرادته، أو تهينُ كرامتَه. والسلطة التى تفرطُ فى أسباب تحصيل القوة، وتتسبب فى ضعف

المجتمع والدولة تفقد شرعيتها بقدر تقصيرها.وأن منَ الخيرِ للإنسانيةِ كلها أن يتجه المسلمونَ إلى العودة لدينهم، وأن ذلك سيكون أكبرَ دعائم السلامِ على الأرضِ، وأن الدافعَ فى ذلك ليس التعصبُ الأعمى، ولكنَّ الاقتناعَ التامَّ بفضلِ ما جاء به الإسلامُ، وانطباقه تمامَ الانطباقِ على أرقى ما كشف عنه التفكير العقلى السليمُ من قواعد الاجتماع الصالحةِ، ودعائمَ نظمه القويةِ الثابتةِ.

ثانياً: مفهومُ الدعوةِ العامةِ ومقاصدها

تستهدفُ الدعوةُ العامةُ ـ إلى اللهِ تعالى ـ تفعيلَ الخطابِ الدعوى باتجاهِ غير المسلمين؛ أفراداً، أو فئاتٍ، أو أقواماً ومجتمعاتٍ؛ وذلك قيامًا بواجبِ البلاغِ العام، وأداءً لرسالة الإسلام إلى العالمينَ. ومقاصدُ هذه الدعوةِ العامة أهمُّها الآتي:

١- التعريف بوحدانية الله سبحانه والدعوة إلى الإيمان به

المقصدُ الأولُ للدعوةِ العامةِ المتجهةِ إلى الناسِ كافةً من غيرِ المسلمين هو: إبلاغُ المخاطبين بدلائل وحدانيةِ الله سبحانه وتعالى، ودعوتِهم للإيمان به، والكفرِ بكل ما يعبدونَ من دونِه. وتنتهى مهمة الدعاة عند هذا الحدِّ؛ إذ لا اختصاصَ لهم ولا مسئوليةَ فى الإرغامِ على الاقتناعِ بهذه الدعوة. هذه هى القضيةُ المركزيةُ فى الدعوةِ العامةِ إلى الله تعالى. وهذه هى دعوةُ الأنبياءِ والمرسلينَ من أولهم إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم. والقيامُ بهذا الواجبِ هو من كمالِ إيمانِ المسلم. والداعى هنا ينظرُ إلى الناسِ جميعًا كرحم واحدة. قال تعالى:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(١٨).

ويعتقد المسلم أن لهذه الرحم عليه حقاً، يمليه الأمرُ الإلهي. وفى مقدمةِ حقوقِ الرحم الآدمية "حق البلاغِ والبيانِ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ

اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(١٩). ويكون البلاغ أيضًا بالشهادة والسلوك النموذجى والإحسان، والجهاد الدائم لإزاحة عوائق الظلم حتى يسمع الناس جميعًا كلام الله"(٢٠)؛ بكاملِ حريتِهم وبمحضِ اختيارهم.

وعُدَّةُ الداعيةِ لتحقيق هذا المقصدِ تشملُ: الحججَ العقليةَ، والمسلماتِ الفطريةِ، والقصصِ والأمثالِ القرآنية، والآياتِ الكونيةِ، وكل ما يقوم دليلاً مقنعًا على وجود الله تعالى ووحدانيته. والدستور العام لأسلوب الدعوة هنا ـ كما فى بقية مقاصدِ الدعوة ـ هو: الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسنُ وحسب.

ويثيرُ البعضُ فى هذا السياقِ مسألةً تحتاج إلى تحقيق وهى: هل الدعوةُ إلى شهادةِ ألا إله إلا الله مقصدها تحقيقُ الهداية أو الدلالةُ عليها؟. إن ظاهرَ آيات القرآن الكريم يشيرُ إلى أن مهمة الداعى هى البلاغُ فحسب، أما الاستجابةُ بإعلان الشهادة والدخول فى دين الله فهذا ليسَ من مهماتِ الداعية؛ حتى ولو كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم بذاتِ نفسِه الشريفة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ۗوَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٢١). وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٢٢). ومن أعرض عن الهداية والتذكيرِ فعليه وزرُه، وليس على الداعى أن يحاسبَهُ؛ أو يعنفَهُ أو يلومَهُ مجرد لوم لهذا السبب. ونؤكدُ أن مسئوليةَ الداعى تنحصرُ فى تقديمِ الإسلامِ كما هو دونَ مداهنةٍ أو مجاملةٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(٢٣).

٢ - بيان عموم تكريم الله للآدمى ووحدة البشرية

الكرامةُ الإنسانيةُ، وانتماءُ بنى آدم جميعًا لأصل واحد؛ هما أعظم قاسم مشترك بين كل الشعوبِ والأممِ. وأساسُ ذلك هو قولُ الله تعالي﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٢٤)، وقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢٥). وقولُ الرسول صلى الله عليه وسلم" كلُّكم لآدمَ، وآدمُ من ترابٍ". وتكريمُ الإنسانِ فى الإسلام سابقٌ على ارتباطِه بأى نوعٍ من الروابط الاجتماعيةِ أو الدينيةِ، أو السياسيةِ، أو الثقافيةِ، أو الاقتصاديةِ، أو المهنيةِ؛ أو غير ذلك من الروابطِ التى تؤطرُ الوجودَ الحياتى له، أو تصنفه ضمن تراتبيةٍ طبقيةٍ. وهذا يعنى أن الإسلامَ ينظرُ للإنسانِ على أنه مكرمٌ فى ذاتِه ولذاتِه. ويعنى أيضًا أن كلَّ سياسةٍ أو قرارٍ أو مشروعٍ أو ممارسةٍ تنتهك شيئًا من كرامةِ الآدمى فى أى من معانيها؛ هو انتهاكٌ للمرجعيةِ الإسلامية، وإهدارٌ لشرعية السلطة التى تقوم على شئونها بنفس القدر الذى تنتهك به الكرامةَ الآدميةَ. وفى "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازى تعبير دقيق عن وعى المسلم بأصالة التكريم الإلهى للجنس البشرى؛ إذ يقول" النفس الإنسانية أشرف النفوس فى هذا العالم، والبدن الإنسانى أشرف الأجسام فى هذا العالم... وقد فضل الله تعالى الإنسان على سائر الحيواناتِ بأمور خلقيةٍ طبيعية ذاتيةٍ مثل: العقل، والمنطق، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المديدة، ثم إنه عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة؛ فالأول هو التكريم، والثانى هو التفضيل"(٢٦).

من مقاصدِ الدعوةِ العامةِ بيانُ أن من مسئولياتِ السلطةِ المدنية ذاتِ المرجعيةِ الإسلامية: المساعدةُ فى تحريرِ عمومِ الناسِ من الاستعبادِ، ونصرةِ

المستضعفينِ أينما كانوا. وتعتبرُ الكرامة الإنسانية منحةً عامة للبشرِ دون تمييز. وإن كرامةَ الآدمى بمعايير المرجعية الإسلاميةِ هى القلبُ النابض لمهمة إعمار الأرض التى أتت بها رسالات الأنبياء جميعًا، وأوضحتها رسالةُ الإسلامِ بما لا خفاء معه لبناء سعادة الإنسانِ.الإسلامُ يؤكدُ على أن الإنسانَ عونٌ لأخيه الإنسانِ وسند له؛ يسعى لإسعادِه ويتعاون معه على عملِ الخير، ومحرمٌ عليه أن يتشاركَ معه على الشرِّ أو الإضرارِ بالغير. قال تعالى:﴿.... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢٧]. وفى سورة الزلزلة يقول تعالى﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[٢٨].

٣- بيانُ مكانةِ العقل وأنه أساسُ حرية الإرادة والتفكير والاختيار

احتلَّ العقلُ مكانة مركزية فى الحداثةِ الغربيةِ؛ حتى بات هو المشرعُ، وهو مرجع التحسينِ والتقبيحِ، ومعيارُ الصوابِ والخطأِ دون قيد أو شرطٍ. ويظنُ من لا يعرف حقيقةَ الرؤيةِ الإسلامية أن الإسلامَ على النقيض من الحداثةِ؛ لا يعترفُ بالعقل البشرى، أو لا يسمحُ له بأداء دورٍ أساسى فى حياةِ البشرِ. والحقيقةُ أن العقل يعتبر سلطة معرفية مركزية، ولكن تحتَ مظلةِ المرجعيةِ الإسلامية وفى ضوء ثوابتها ومقاصدها العامة؛ وهى أوسعُ مظلةٍ يمكن أن يستظل بها العقلُ الإنسانى. ويمتدُ دور العقلِ من الفكرِ الحرِ إلى تأسيسِ نظمِ المجتمعِ وتدبيرِ مصالحه. وكلُّ أفعالِ العقل فى المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم تدلُّ على أنه محلُّ تقدير وتكريمٍ؛ لوظيفته الأساسية فى حياة الإنسان[٢٩].

ومن مهماتِ الدعوة العامة وأولوياتِها بيانُ مكانةِ العقلِ فى الرؤية الإسلامية، وكيف أن الإسلامَ دعا لتحريره من كل القيودِ التى تعطلُه، أو تنتقصُ من وظائفه؛ وخاصة قيودَ التقليد للسابقين أو للآخرين، وقيودَ الخرافة

والأساطير، وقيودَ الجهل والأمية. بل إن الإسلامَ جعلَ العقلَ مناط التكليفِ والمحاسبةِ. ونبهت آيات القرآنِ البشر جميعًا إلى أن العقلَ هو أفضلُ القوى الإنسانيةِ، وأنه أساسُ شعورِ الآدمى بإنسانيتِه. وأن العقلَ هيأ للإنسانِ أمرينِ طالما حُرِمَ منهما: أ - استقلالُ الإرادةِ ب- استقلالُ الرأى والفكر.

العقل وسيلةُ للوصول إلى الإيمان بالله تعالى. وقاعدةُ الإيمان فى مرجعيته الإسلامية هي: استدلْ ثم اعتقدْ كما عبر عنها الإمامُ محمد عبده. وهذه الرؤيةُ تساير فطرة العقل، وتحترم رغبتَه فى التأملِ واستكشاف العللِ والأسبابِ .

فحينما دعا الإسلامُ الناس إلى الإيمانِ بالله وبعظيمِ صفاته، وجههم إلى بلوغِه عن طريق إعمالِ العقل، واستخدامِ أدواتِ المعرفة التى لديه فى النظر والتفكيرِ فى دلائل قدرة الله وعلمِهِ وحكمتِه وعدلِه وسائر صفاته الدالةِ على وجوده، وأرشدهم إلى أن هذه الدلائلَ مبثوثةٌ فى السماء والأرض وفى أنفسهم[٣٠].

٤ - نقضُ السلطةِ الدينيةِ وتحريرُ الإنسانِ من استبدادها

لا تكتملُ الدعوةُ العامةِ إلى توحيد الله سبحانه إلا إن كانَ من مقاصدِها هدمُ السلطة الدينية/الكهنوتية أينما كانت، وتجفيفُ منابعها، واجتثاثُها من جذورها. والسلطةُ الدينية الكهنوتية التى نقصدُها هنا هى: تلكَ التى تدعى أن لهَا حقًا صغرَ أم كبرَ فى التدخلِ فى ضميرِ الفرد، أو الرقابةِ على إيمانِه، أو معاقبتِه بدعوى أن صاحبَ هذه السلطةِ الدينية، أو الناطقَ باسمها- فردًا كان أو مجموعةً، أو طائفةَ، أو حزبًا، أو فئةً - ينطق باسمِ الله، أو مبعوثاً من لدنه، أو واسطةً بينه وبين الناس، أو يحملُ تفويضًا إلهيًا منه سبحانه وتعالى. ومن مقاصدِ الدعوةِ العامةِ أن يشرحَ الداعيةُ أن الإسلامِ جاءَ ليحاربَ مثل هذه السلطةِ ليخلص البشرَ من شرورِها، ومن شرورِ أى سلطة تكون على غرارها، أو تنسجُ على منوالِها.

توضح آيات القرآن المجيد طريقَ هدم السلطة الدينيةِ بالمعنى الذى ذكرناه: تارة بالمحاجة وإلزام الخصم الحجة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَى ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣١]. وتارة بدعوته إلى إعمالِ عقلِه والتفكرِ فى نفسِه وفيما حوله من مخلوقات الله ليصلِ إلى الإقرار بوحدانية الله سبحانه، وتارة أخرى بضرب الأمثال وحكاية القصص من الأمم السابقة مع الدعاةِ إلى الله من الأنبياء والمرسلين. وهذه مادة الدعوة الأساسية التى يحتاجها الداعى فى مجال الدعوة العامة، وعليه ألا يتجاوزُها إلى غيرِها قبل أن يستوعبَها ويلم بها ويتقن الاستدلالَ بها.

٥- إقرار التعددية الدينية والحضارية وحماية المخالفين فى الدين والمذهب

إنَّ أصلَ الرؤيةِ الإسلاميةِ للعالمِ عقيدى إيمانيٌ. أما رؤى العالمِ غيرِ الإسلاميةِ التى يسميها الألمان Weltanschauung فأصلُها فلسفى وضعيٌ. ويرتكزُ أصلُ رؤيةِ العالمِ من منظورٍ إسلامى على عقيدة "التوحيد". والتوحيدُ يعنى الإقرارَ بوجود الله وبوحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه هو خالق هذا الكون ومالكَه الحقيقى الوحيدَ ولاشريك له، وهو الذى خلق الإنسانَ، وجعله خليفةً فى الأرض ليعمرَها، وألا يخربَها أو يتسببَ فى تدميرِها، وليتصرفَ فيها طبقًا لأوامره عز وجل، وامتثالاً لإرادته سبحانه: "**وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير**"[٣٢].

من مقاصد الدعوة العامة بيان هيمنةِ مبدأِ الوحدةِ Unity والوئامِ على الرؤيةِ الإسلامية للعالم، ومن ثم نبذِ التجزئةِ والصراعِ، مع عدم التوانى عن ردعِ أو منعِ الاعتداءِ من المحيطِ الخارجى، ولا يعبرُ مبدأُ الوحدةِ عن مجردِ فكرة نظريةٍ أو فلسفيةٍ مثاليةٍ Utopia، وإنما هو متجذرٌ اجتماعيًا فى وحدةِ الجنسِ البشرى، ومتأصلٌ روحيًا فى وحدةِ الدينِ ورسالته من حيث مصدرها وهو اللهُ الواحدُ فى عليائِه.

إنَّ من مسلماتِ الدعوةِ العامةِ أن الإسلامَ يقررُ التعدديةَ الدينيةَ، ويبسطُ حمايتَه على المخالفينَ فى الدينِ، ولا يعترضُ على بقائِهم على دينِهم الذى اختاروه بمحض إرادتِهم. بل إنَّ الإسلامَ يحرمُ ويجرمُ أى اعتداءٍ عليهم بسببِ انتمائِهم الدينى أو المذهبى، ويأمرُ بمحاسبةِ من يعتدى عليهم ومعاقبتِه. وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ فمنْ بابِ أولى أنَّ الإسلامَ يعترفُ بالتعدديةِ الفكريةِ والثقافيةِ والحضاريةِ عامةً، وأن الفيصلَ فى ترجيحِ رأى على آخر، أو سياسةٍ على سواها هو رأى صاحبِ المصلحةِ، وهم السوادُ الأعظم من الناس المعنيين بالأمر فى كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

وعليه؛ فإنَّ من مقاصدِ الدعوةِ العامةِ: بيانُ هذا التوجهِ الإسلامى الأصيلِ نحو أصحابِ الدياناتِ الأخرى. وما يترتبُ على ذلكَ من مواقفَ، من أهمها: عدمُ الاعترافِ لفردٍ، أو لحزبٍ، أو لجماعةٍ، أو لطائفةٍ؛ كائنة ما كانت؛ بأنها معصومةٌ من الخطأ. وأن إخراسَ صوتٍ واحدٍ مخالفٍ هو فى حقيقتِه ادعاءٌ للعصمة. والمرجعية الإسلامية ترفض هذا كله ولا تعترفُ به، وتدعو إلى مقاومتِه.

إن آياتِ القرآنِ تنصُّ صراحةً على وحدةِ الدينِ، وتأمرُ النبى وأصحابَه بأن يكونوا أولَ المؤمنين بهذه الوحدةِ. فالمسلمُ يجبُ عليه أن يؤمنَ بكلِّ نبى سبقَ، ويصدقَ بكل كتابٍ نزلَ، ويحترمَ كل شريعةٍ مضتْ. وأن يثنىَ بالخيرِ على كلِ أمةٍ من المؤمنينَ خلتْ. قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٣٣]. ثم يقفى على ذلكَ بأنَّ هذه هى سبيلُ الوحدةِ، وأنَّ أهلَ الأديانِ الأخرى إذا آمنوا كهذا الإيمانِ فقد اهتدوا إليها، وإن لمْ يؤمنوا به فسيظلونَ فى شقاقٍ وخلاف.وأنَّ أمرَهم بعد ذلكَ إلى اللهِ فيقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا

آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٤].

ومن مقاصدِ الدعوةِ العامةِ أن تتدينَ البشريةُ كلُّها،وأن تتوحدَ بالدينِ، وأن هذا الدينَ الموحدَ هو الدينُ القيمُ، وهو فطرةُ اللهِ التى فطرَ الناسَ عليها. وفى ذلك يقولُ الله تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[٣٥]. ويقول الله تعالى مخاطبًا النبى محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٣٦]. وفى قولِ للنبى صلى الله عليه وسلم تصويرٌ بديعٌ لهذا المعنى حيث يقولُ: "مثلى ومثل الأنبياء قبلى، كمثلِ رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجملَهُ إلا موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعلَ الناسُ يطوفونَ به، ويعجبونَ لـه، ويقولونَ هلا وُضعتْ هذه اللبنة ! فأنا تلكُمُ اللبنة وأنا خاتمُ النبيينَ"[٣٧].

٦- بيان أن التعاون والسلام أصل العلاقات بين الشعوب، وأن الحربَ حالةٌ استثنائيةٌ

إن مقتضى الرؤيةِ الإسلاميةِ للعالمِ – وهى تقومُ على أساسِ عقيدةِ التوحيد الديني، ووحدة البشرية – هو أن تكونَ رسالةُ الإسلامِ عالميةً. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣٨]. وليستْ قطريةً، أو إقليميةً، أو عرقيةً. ومن مقاصد الدعوة العامة أيضًا بيانُ أنَّ "السلامَ" مركبٌ هيكلى فى صلبِ البناء العالمى الذى ينشده الإسلامُ، وأن هذا السلامَ ليس أمرًا طارئًا أو استثنائيًّا، وبالتالى فإن الحرب هى الاستثناء. وأنَّ الصراعَ هو الخروجُ على القاعدة.

ويسبقُ التعاونَ والسلامَ؛ التعارفُ بين الشعوبِ والقبائلِ. وحكمةُ التعارفِ أنه قانونٌ اجتماعى وجدانى وشرطٌ للمعاشِ الآدمى. والذى لا يدركُ التعارفَ بهذا المعنى يظلُّ فى الضياع؛ مثلما كان حالُ آدم وحواء قبل أن يتعارفا بعد هبوطهما من الجنة؛ فالتعارف بين البشر إذن تكرارٌ للحظةِ الزمنيةِ لتعارفهما؛ هى لحظةُ أنْ يدركَ البشرُ أنهم سواءٌ. وهذا مقصدٌ عظيم فى ذاته، ولما يترتبُ عليه من مقاصدَ أخرى.

إنَّ أغلب المخاوف تنشأ فى غياب التعارفِ، وفى غياب المعرفة أيضًا. ووظيفةُ فعلِ التعارفِ هو أنه يتيحُ فرصةَ التساؤلِ عن إمكانيةِ الاتفاقِ على القيمِ الكونية التى هى محلُّ إجماعٍ بين بنى آدمَ بحكمِ الفطرةِ. ودون التعارفِ العامِّ لا يمكنُ التوصلُ إلى هذه القيم الفطرية المشتركة، ولا إلى التفاهمِ والسلام؛ فالتفاهُم حده الأدنى هو الالتقاءُ على أرضيةِ المعانى المركزيةِ الكبرى؛ أما سوءُ التفاهمِ، ومن ثم الحربُ؛ فيتعززُ دومًا على أرضيةِ المعنى الهامشى، أو فى ظلالِ الفرعياتِ والخصوصياتِ، أو فى أصداءِ التصرفاتِ الانفعاليةِ والعاطفيةِ. ومن هنا ندركُ عظمةُ فعلَ التعارفِ وحكمته التى أمرَ بها القرآنُ الكريم، وندركُ أيضًا أنه كلمةٌ مركزيةٌ فى وصفِ علاقاتِ البشرِ فى بناءِ وجدانِهم وفى ضبطِ سلوكهم الاجتماعى.

ونؤكد – مرة أخرى- على بنيويةِ فكرة السلامِ وأصالتِها فى الرؤية الإسلامية على جميع المستويات؛ ابتداء من الفردِ، ومرورًا بالأسرةِ والجماعةِ والمجتمعِ والدولةِ، وصولاً إلى النطاقِ العالمى بأسره. إنها رؤية متكاملة يدعو الإسلامُ للنظر من خلالها إلى العالم باعتباره كلاً متناسقًا، والسلامُ قرين التناسق، ولا تأتى الحرب إلا بالخروج من هذا التناسق بالبغى والظلمِ، أو بالفسادِ والتنازع؛ فترده الحرب الموقوتة المحكومة بأخلاقيات الإسلامِ الراقيةِ إلى السلامِ الدائمِ من جديدٍ.

وليسَ يكفى لتحقيقِ هذا السلام العالمى الذى يدعو إليه الإسلام أن تكونَ مثاليته معلقةً فى السماءِ، ولا أن يكونَ التزامُ المسلمينَ التزامًا دينيًّا ومصلحيًّا؛ بلْ لا بدَّ من معرفةِ طرق تحقيقها على الأرض، وفى حياة الناسِ والمجتمع الإنسانيِّ، وهذه الطرق تخضعُ للاجتهادِ حسب اختلافِ ظروف الزمان والمكان، ولكنها فى كل الأحوالِ يجب أن تكون منضبطة فى إطار منظومة من القيم والمبادئِ المعياريةِ المجردة؛ التى تكون حاكمة لها وليستْ محكومةً بها.

٧- المصلحةُ الاجتماعيةُ أساسُ العلاقةِ مع أهلِ الكتابِ ومع عمومِ غيرِ المسلمينَ

إن التعاملَ بين المسلمينَ وغيرهم[٣٩]؛ من أهل العقائد والأديان؛ إنما يقومُ على أساسِ المصلحةِ الاجتماعيةِ والخيرِ الإنسانيِّ. يقول اللهُ تعالى:﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٤٠]. وإن الحوارَ،أو الجدالَ بالتى هى أحسنُ هى الوسيلةُ المثلى للتفاهمِ بشأنِ قضايا الإيمان والعقيدةِ، وليست الحربُ أو القهرُ أو الإكراهُ . قال تعالى:﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِى أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤١]. وإذا كانَ الحوارُ هو الوسيلةَ المعتمدةَ فى مثلِ هذه القضايا على خطورتِها وأهميتِها؛ فإنه يكون أولى بالتطبيقِ فيما دونها من القضايا والمشكلاتِ، وأولى أن يكون مبدأ عامًا من مبادئ معالجة معضلات العلاقات الإنسانية.

ومما سبقَ يتضحُ أن الأصولَ المعرفيةَ للرؤيةِ الإسلاميةِ للعالمِ تنفى كلَّ مصادرِ الفرقةِ والحقد والخصومةِ والنزاعِ بين الناسِ من أى دينٍ كانوا. ولمْ تقف عندَ حدودِ التمهيدِ النظريِّ، أو الخطابِ العاطفى، بل فتحتْ بابَ التعاونِ العملى، والتواصلِ الفعلى والعملِ المشتركِ والتعايشِ السلمى، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ منها مثلاً ما يشير إليه قول الله تعالى:﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾"(٤٢).

خاتمـــةٌ

ثمةَ مسألةٌ مهمةٌ نود الإشارةَ إليها بشأنِ تجديد مفهوم الدعـوة وبيان مقاصدها الخاصةِ والعامةِ، وهذه المسألةُ هى: أنَّ أدواتِ وأساليبَ التدريبِ العملى للقائمين بمهمات الدعوة العامة أو الخاصة؛ قد تطورتْ – ويجب أن تتطور– بفضل تطور تكنولوجيا المعلوماتِ والاتصالاتِ. وأنه أيًا كانتْ نوعيةُ الرسائلِ التى يحملونها ويسعون لنشرها والدعوةِ إليها؛ فقد أضحى النجاحُ فى أداءِ "دعوتهم" مرهونًا– إلى حد كبير– بقدرتِهم على "التواصلِ الفعالِ" مع مختلفِ شرائحِ المجتمعِ. وعليه فمن المفترضِ أن يكونَ المتصدى للدعوة قد تلقى– إلى جانبِ تأهيله العلمى الموضوعى والمتعمق– تدريباتٍ عمليةً بأدواتٍ ووسائلَ متنوعةٍ من أجل صقل مواهبه واختبارِ معارفِه وقدراتِه على التواصلِ مع الجمهور الذى يتعاملُ معه ويعيش فى محيطه، ويهدفُ إلى التواصلِ الفعالِ مع مختلفِ شرائحِه.

ونظرًا لأن العالميةَ هى واحدة من أهم خصوصياتِ الدعوة الإسلاميةِ العامة؛ فإن الوضعَ الأمثلَ هو أن يكونَ الداعى إليها متمكنًا من طرقِ التواصلِ

التقليدية، بنفس درجةِ تَمَكُّنِه من طرقِ التواصلِ الحديثةِ. فميدانُ الوعظِ والإرشادِ لا نخالُ أنه سوفَ يستغنى يومًا عن "الاتصال المباشر" بين الواعظِ أو الداعى والجمهور؛ مهما تطورت تكنولوجيا الاتصالِ، ومهما تقدمت وسائلُ نقل الرسائلِ والمعلومات والتوجيهات، وما فى حكمها. صحيح أنه لا غنى عنْ منجزاتِ ثورةِ الاتصالاتِ وتكنولوجيا المعلومات، ويجبُ استيعابُها وتوظيفُها فى خدمةِ الدعوة العامةِ والخاصةِ؛ ولكن الاتصالَ المباشرَ يظلُّ هو الأساسُ فى عملِ الدعاةِ. ودليلُنا الأكبرُ على ما نقول هو أن عملَ الأنبياءِ والمرسلينَ هو "النموذج التأسيسى" للعملِ فى ميدانِ الدعوة. وجميعُ الأنبياءِ والمرسلينَ قد تواصلوا مباشرةً مع أقوامِهم وأممِهم. وقدوتنا ومعلمنا سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هو خيرُ من دعا إلى ربِّه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وكان يخالطُ الناسَ ويجالسُهم فرادى وجماعاتٍ، وكانَ يدعوهم إلى الله ويعلمهم ويزكيهم ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم فى المعاش والمعادِ، وكان فى الوقت نفسه مثله كمثل سائر إخوانه من النبيين والمرسلين يوظفَ كلَّ الوسائلِ والأدواتِ المتاحةِ فى زمنه لكى تصلَ دعوتُه بكفاءةٍ وفعاليةٍ.

المراجع والهوامش

١- لا تحتمل الدعوة الخاصة أو العامة سوى الصدق؛ وإلا أمست نوعًا من "الدعاية" وقد ظهر مصطلح "الدعاية" Propaganda لأول مرة فى سنة ١٦٣٣ عندما أنشأ أحد باباوات الكنيسة الكاثوليكية إدارة باسم Congregation Of Propaganda وعين فيها عددًا من كبار الأساقفة للقيام بتخطيط الحملات الدعائية الكنسية، والرد على الإصلاحات التى كان مارتن لوثر قد دعا إليها قبل ذلك فى سنة ١٥١٧ انظر:

Dominic W.Moreo, Games of Persuasion: Exercise in Media Literacy (USA: Writers Club Press, 2000) p. 3. وانظر، Baruch A. Hazan, Olympic Sports and Propaganda(New jersey: Transaction Inc .New Brunswick, 1982) p.7 :

وثمة أسباب أخرى أدت لظهور مفهوم الدعاية ومصطلحها وردت فى المرجعين السابقين وفى غيرهما. ورغم تطور فن الدعاية، ظلت دوافع نشأتها ملازمة لها،؛ حيث أضحى هدفها هو: فن تكتيل القوى العاطفية والمصالح الفردية بقصد خلق حالة من التشتت الذهني، والغموض الفكرى الذى يسمح بتسهيل عملية الإقناع بفكرة، أو تغيير توجه، أو التحكم فى السلوك.

٢- كليم صديقى، التوحيد والتفسيخ، ترجمة ظفر الإسلام خان، لندن: منشورات المعهد الإسلامى، أوبن برس ليمتد، ١٩٨٤، ص١٢ و١٣.

٣- انظر: عبد الرحمن الكواكبى، أم القرى: وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ ، حلب، المطبعة العصرية، ب. ت، ص ص٣١-٣٣.

٤- سورة المائدة آية رقم ٢.

٥- سورة النساء، آية رقم ١٣٥. وهذه الآية وضعتها كلية القانون بجامعة هارفارد الأمريكية، فى مدخلها ضمن مجموعة أقوال خالدة عن العدالة.

٦- سورة آل عمران، آية رقم ١٠٣.

٧- سورة الأنفال، آية رقم ٤٦.

٨- سورة البقرة، آية رقم ٢٩.

٩- سورة المائدة، آية رقم ٤٨.

١٠- سورة هود، آية رقم ١١٨.

١١- عبد السلام ياسين، العدل، مطبوعات الأفق، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠، ص ص٢٤٦، ٢٤٧.

١٢- محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى (ت:٣٨٧هـ)، مفاتيح العلوم، مصر، طبعة خليل عثمان، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠). وهو يقسم العلوم إلى شرعية، وأخرى. وهو تقسيم غير نافع فى رأينا.

١٣- سورة التوبة، آية رقم ١٠٥.

١٤- لمزيد من التفاصيل انظر: المبادئ العامة للملكية فى الاقتصاد الإسلامي. محاضرات غير منشورة ألقيت على طلبة الدراسات العليا . جامعة زايد ٢٠١٢/٢٠١٣.

١٥- الظواهر السلبية المشار إليها آخذة فى الاتساع فى أغلبية المجتمعات الإسلامية بدلالة: تدنى نسبة المشاركة فى الانتخابات العامة أو المحلية، وتراجع الاهتمام بالمرافق والخدمات العامة والمصالح المشتركة، وانخفاض درجة الإقبال على العمل التطوعى والمبادرات الهادفة لخدمة المجتمع ...إلخ.

١٦- سورة التوبة، آية رقم ٧١.

١٧- رواه البخارى برقم (٦٠١١) ومسلم برقم(٢٥٨٦) فى صحيحيهما.

١٨- سورة النساء، آية رقم ١.

١٩- سورة الأحزاب، آية رقم ٣٩.
٢٠- عبد السلام ياسين، العدل، مرجع سابق، ص٣٧٠.
٢١- سورة البقرة، آية رقم ٢٧٢.
٢٢- سورة القصص، آية رقم ٥٦.
٢٣- سورة الكهف، آية رقم ٢٩.
٢٤- سورة الإسراء، آية رقم ٧٠.
٢٥- سورة الحجرات، آية رقم ١٣.
٢٦- فخر الدين الرازى، مفاتيح الغيب بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ، ٢١/٣٧٥.
٢٧- سورة المائدة، آية رقم ٢.
٢٨- سورة الزلزلة، آية رقم ٧ و٨.
٢٩- فهمى قطب الدين النجار، العقل فى القرآن الكريم، مقال موجز يعرض بطريقة المسح الشامل لمواضع ورود "العقل" فى آيات القرآن الكريم، وهو منشور على موقع: http://www.alukah.net/culture/0/65235/#ixzz3hYXczA51
٣٠- عبد الرحمان حبنكة الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها فى سائر الأمم ، دمشق، دار القلم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨، ص ٣٢٩
٣١- سورة البقرة، آية رقم ٢٥٦.
٣٢- سورة الأنعام، آية رقم ١٨.
٣٣- سورة البقرة، آية رقم ١٣٦.
٣٤- سورة البقرة، آية رقم ١٣٧.
٣٥- سورة الشورى، آية رقم ١٣.
٣٦- سورة الشورى، آية رقم ١٥.
٣٧- رواه البخارى ومسلم.
٣٨- سورة الأنبياء، آية رقم ١٠٧.
٣٩- لم يتبلور مفهوم الغيرية فى الفكر الإسلامي، وإنما نشأ وتطور بمعانٍ إقصائية غير إنسانية فى الفكر الغربى الحديث والمعاصر، وبخاصة فى مرحلة ما بعد الاستعمار ضمن أعمال المدارس النقدية التى ظهرت منذ ذلك الحين Post- Colonial Criticism ولمزيد من التفاصيل انظر: المبروك الشيبانى المنصورى، صناعة الآخر: المسلم فى الفكر الغربى المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا، بيروت، مركز نماء،٢٠١٤، ص ص ١٢ -١٦.
٤٠- سورة الممتحنة، آية رقم ٧ و٨.

٤١- سورة العنكبوت، آية رقم ٤٦.
٤٢- سورة المائدة، آية رقم ٥.

Abstract

RENEWAL OF RELIGIOUS DISCOURSE: THE DAWA' CONCEPT AS AMODEL

Ibrahim El-Bayomi

The Concept of Dawa' is one of the Comprehensive Islamic Concepts. The main Purpose of this Paper is to explain how Islamic Religious discourse can be renewed from the Dawa' Perspective. This paper aims to clarify the differences between the purposes of the General Dawa' and those of the private Dawa', it proposes some practical tools of Renewal.

ملاحـــق

تتضمن الملاحق التالية مقترحات تدريبية للدعاة على ممارسة الخطاب الجديد للدعوة الخاصة والدعوة العامة. وقد تم الاعتماد فى صوغها مبدئيًا على معطيات نظرية مستمدة من علم الرأى العام، ومن علم لغويات التفاوض وتطبيقاته فى مجال الإعلام، ومن بعض اجتهادات الدكتور حسن وجيه فى هذا المجال بشكل خاص؛ مع تكييف تلك المعطيات لتتسق مع الخطاب الدعوى الخاص أو العام. وما هو وارد فى هذه الملاحق مجرد مقترحات يحتاج تفصيلها إلى بحث مستقل.

ملحق رقم (١)

مراحل تطور الدعوة العامة حتى تحقق مقاصدها

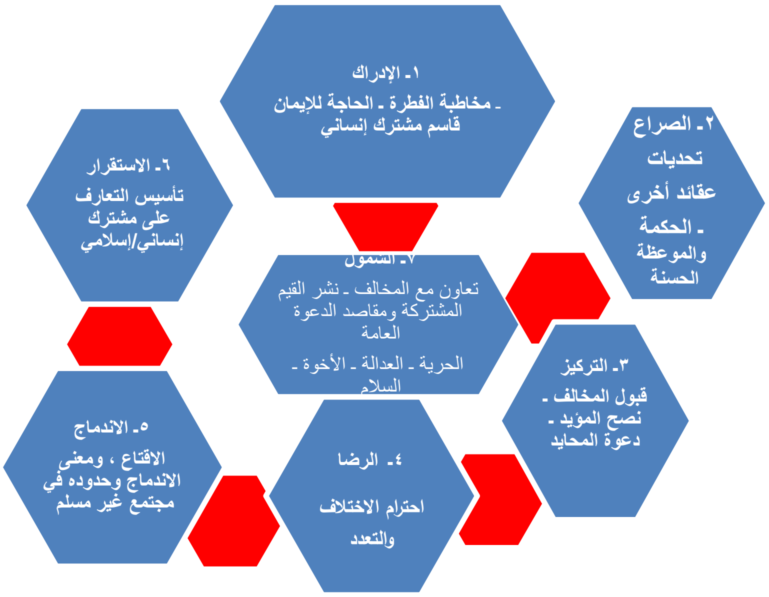

ملحق رقم (٢)

أنواع المستمعين للدعوة من المنظور القرآنى

١ـ من يحسنون الاستماع ويفهمون ما يستمعونه فهمًا جيدًا

Good Listeners Understanding Type

٢ـ من يحسنون استدعاء المعلومات الدقيقة ويستبعدون الخاطئة

Perfect Info., Seekers

٣ـ من يستمعون وهم منشغلون باهتماماتهم الخاصة دون إنصات لمعنى ما يستمعون له

The Pre-Occupied With Their Agenda

٤ـ مستمعون لديهم قدرة على اتخاذ القرار المناسب في ضوء ما استمعوا له

The Good Decision Makers

٥ـ من يتظاهرون بالاستماع والتصديق

The Pretension Listeners

٦ـ من تعطلت عندهم أدوات الاستماع أو لا يستخدمونها

Non Listening Type

٧ـ المستمعون الذين يتصيدون ما هو سيء للإساءة للآخرين

Cynical &Offensive Listeners

٨ـ مستمعون لديهم قابلية عالية للاستهواء والانسياق للفتن ولا يحسنون تحصين أنفسهم

The Easy to Be Misguided

ملحق رقم (٣)

آليات الاستماع للداعى وأنماط الاستجابة له

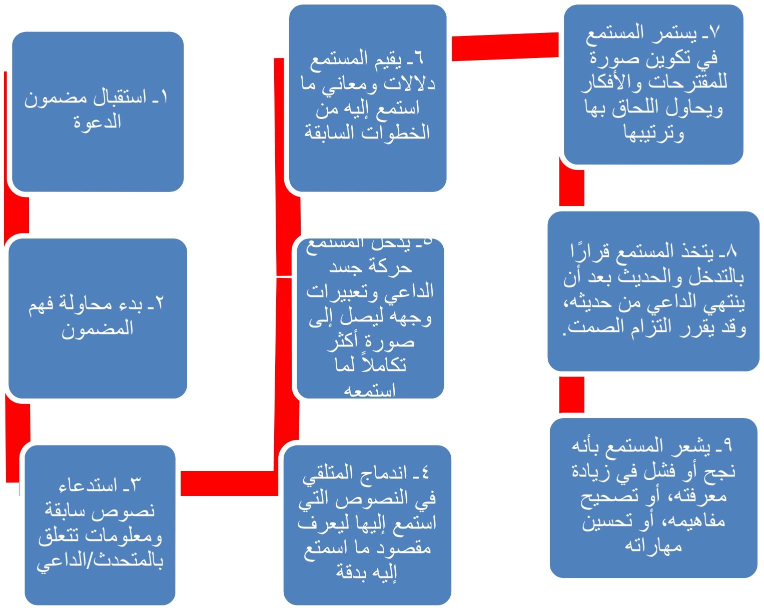

ملحق رقم (٤)

أساليب إقصائية لا تناسب خطاب الدعوة، ويجب على الدعاة تجنبها

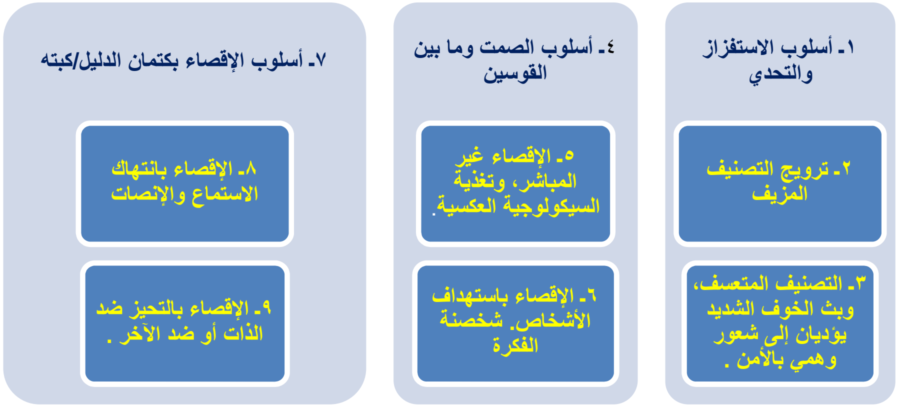

ملحق رقم (٥)

توزيع تقريبى لمواقف شرائح الرأى العام من الدعوة فى المجتمع التسلطى /الاستبدادى، وفى المجتمع الديمقراطى/الحر

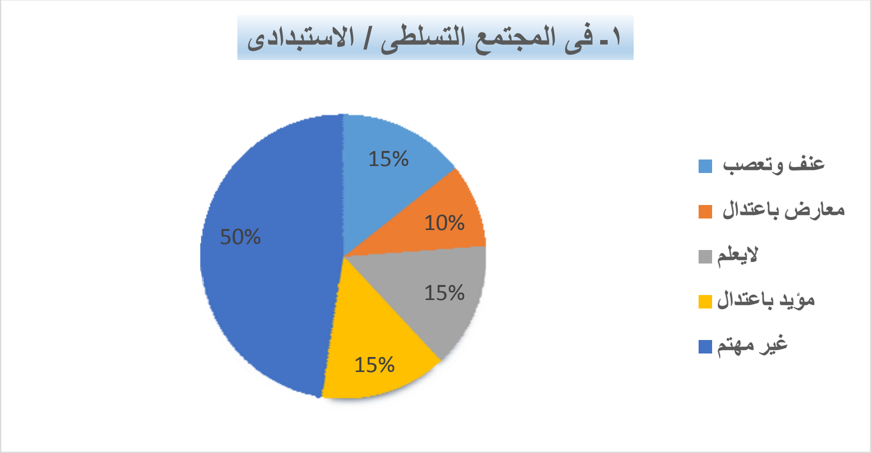

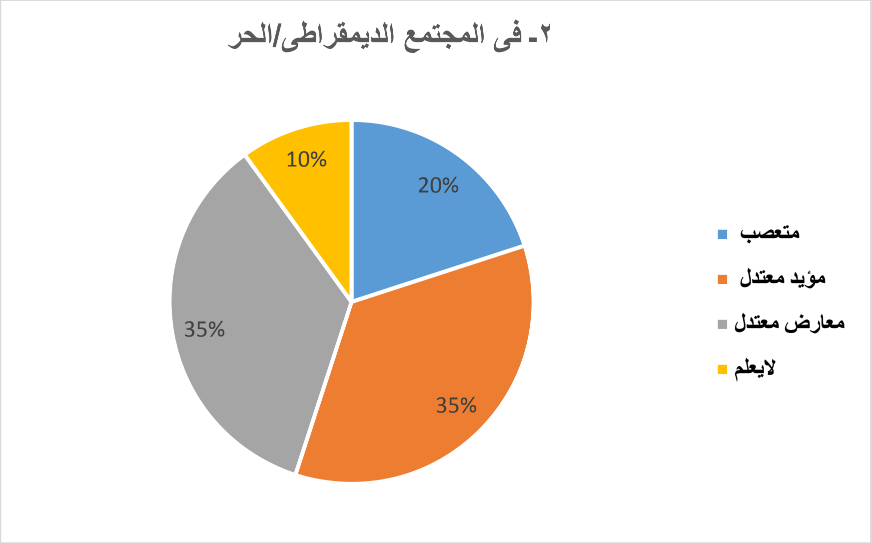

ملحق (رقم ٦)
مقاصد الدعوة وأحوال الإنصات إلى الدعاة

ليس كل إنصات أو استماع دليل على نجاح عملية التواصل، وحتى يكون الإنصات أو الاستماع جيدًا ومؤديًا إلى نجاح الدعوة فى تحقيق مقاصدها؛ فإن أهم نتائج بحوث الاتصال تشير إلى الآتى:

١- الإنصات هو عملية الاتصال الأولى؛ حيث أثبتت عدة دراسات أن الإنسان يقضى ٨٠٪ من ساعات العمل فى عمليات اتصال؛ من حديث، وإنصات. وأن ما لا يقل عن ٤٥٪ منها يقضيه الإنسان العادى فى عملية الإنصات وحدها.

٢- معظم الأشخاص لا يجيدون الإنصات الفعال، وهذا يحتاج إلى تدريب دقيق لاكتساب مهارات الإنصات.

٣- الشخص العادى يتحدث ١٢٠٠٠ جملة فى اليوم، وينطق بحوالى ١٥٠ كلمة فى الدقيقة فى حين أن مخ الإنسان يستوعب حوالى ٤٠٠ كلمة فى الدقيقة.

٤- ثمة فرق كبير بين الإنصات الخامل، والإنصات التفاعلى. الأول يسكن متظاهرًا بالمتابعة والفهم والتسليم، والثانى يصمت وهو يفكر ويفند ما يستمع إليه، وينتظر وقت المناقشة والحوار.

٥- قد تكون للكلمة الصائبة تأثيرها الفعال؛ إلا أن الصمت المؤقت أثناء الحوار والتواصل مع المخاطب/المدعو إذا ما تم توظيفه فى التوقيت المناسب، يكون له تأثيره الأقوى الذى لا يقارن بالكلام.